جندي في السماء

بقلم عبد الرحمن البيك

[مهداة إلى شهداء ١١ كانون الاول]

انا طفل صغير، في السابعة من عمري.. كنت بالامس في عهد دامس، عهد لم يمنحني حق المعرفة، ولم يسغ لي الحياة الحرة.. اما الآن فأنا اتقصى الحرية، واسترسل في تقويض العبودية عن نفسي الصغيرة.

بالامس كان لي اخ، اما اليوم فلم يبق عندي أخ.. وجميع رفاقي الاطفال لهم إخوة يحبونهم ويقدسونهم.. اما انا فقد كان لي اخ.. ولكنه الآن في السماء.

جميع أهلي واقاربي.. اعتبروني غبياً، ولكنهم اخطأوا، لان الطفل يعرف ما يجري على الكرة الارضية.. ذلك لان دمه الذي يجري في عروقه من دماء الشعب، ولان جسمه خليق لان تدفعه الوطنية ثمن المجد..

وأحببت الا يعصى علي امر، فحزنت مع اهلي واجهشت في البكاء، امام صورته التي لم تذو فيها ابتسامته المشرقة.. ولكني مع ذلك كنت اعرف ان اخي سيعود ذات يوم، وسوف أسعد واسر بقدمه.. فالاطفال يحبون ان يمشوا جانب الضباط ويلتذوا من حركاتهم، ويسروا من تلمس ازرار معاطفهم، ويحبروا من تقلد قبعاتهم الواسعة التي تغمر نصف الوجه.

ومنذ يومين فقط، امرنا اخي برسالة ان نحصل له على دار سكن. فهو يرغب في الزواج.. وبحثنا له وفتشنا.. فلم نعثر على دار سكن، لان السكان منحشرون في جميع الابنية والمساكن متلاصقون قرب بعضهم، ينتشون برحيق الحياة، فلم يسمحوا لاخي بأن يغوص في جنباتهم، لينعم بما ينعمون ويلتذ بما يلتذون، بل ولم يشفقوا على خطيبته التي رأت ان تخلد الى قلب اخي الدافيء حيناً يعود بعده الى خطوط القتال.

.. بلى.. لقد فشلنا في ايجاد مسكن.. ولكن المشيئة الخفية التي تكبل ضمائرنا وتتجاوز عقولنا كلما اعتقدنا انها اتسعت وشملت، اختارت له مسكناً صغيراً.. اجل فهناك خارج البلدة.. تقوم فسحة خضراء لا تستقبل الا الصامتين.

وعاد اخي كما كنت أمل.. وزارني صديقي كي يراه ماشياً جانبي، ولكن صديقي في هذه المرة لم يره ولم تقع عليه عيناه الصغيرتان.. لان اخي جاءنا هذه المرة في صندوق خشبي موصد.. أجل في صندوق خشبي لم يسمحوا انا بفتحه ونبشه كي لا يزداد البكاء.

في ذلك اليوم هطلت امطار غزيرة والصندوق في الغرفة يجتذب الآلام.. وابي جاثم قربه في ذهول كلي، ملصقاً خده بجانبه الخشن، كأنه يستمع الى وجيب قلب ابنه الذي لم يبق منه إلا الصدى المتباعد.. وأحد من الناس لم يقترب من الصندوق إلا والقى بالازهار عليه.. حتى امسى هذا دوحة وارفة من ربيع دافيء أيقظته مشاعر الناس على أفق جديد من حياة امة اخي ووطنه.

ومرة ثانية، اشفق الناس علي وظنوا أني حتى منتصف النهار، لم أدر من الامر شيئاً.. ولكن الاطفال يعرفون.. يعرفون كل شيء مهيأ في سجيتهم.

وطال امد زيارة اخي.. حتى خيل لي أنه جاع في صندوقه. ولكني لم اقترح تقديم الطعام له. لاني اعرف انه لم يعد بأمكانه ان يأكل.. فقد تكون اسنانه محطمة.. وثغره ممزقاً.. لا بل إن شهوة الطعام في نفسه غادرتها..

وافتربت من الصندوق، ولم يكن هناك من يؤكد وجود اخي فيه.. كان يوماً من دخان.. ورفيقي بجانبي ايضاً لم يصدق.. ففي الاحلام يشاهد الصغار ازوع المآسي وافدحها تتحقق.. وهذا مشهد.. مشهد لن نستيقظ منه.

وكان ابي وحده يستطيع ان يصف ما يشاهد في قلب الصندوق.. ولكن لسانه كان منحلاً رخواً.. كان يحدق في جنبات الصندوق فيخترق بطرفه الثاقب المثقل بالالم والاسى تلك الالواح القاتمة.. فيرى جسد ابنه ويلقي عليه نظرات الوداع.. نظرات ممزقة زائغة.. نظرات لا تهدأ ولا تستقر بين تلك الالواح المتحدة جسد ممزق كأشلاء زورق صرعته صخرة القدر وابادته.

.. وعجبت وصديقي ان يتمزق اخي.. وتساءلنا.. ايتمزق الانسان بالسكين كما تتمزق كتلة من اللحم.. وأحسسنا بقشعريرة في جسدينا.. وطاف في مخيلتنا ان المخالب الحيوانية تمزق الاجساد ولا تتورع عن نبش القلب الانساني من مكنه الآمن، ثأراً لانحطاطها، وثأراً لطبعها الوحشي المتأصل، وثأراً لدناءة سجاياها المتوارثة..

واقتربت من الصندوق أكثر.. فلم اسمع همساً ولا صوتاً.. فالمائت وديع كل الوداعة، هادىء كل الهدوء.. فارتعت وصديقي الصغير من صمته الازلي. وسألني صديقي.. «الن يخرج لنراه..» فلم احفل باجابته، والاقفال تزعمت جسده وهاهي صامتة لا يجتلي غمها.. وطفت حول الصندوق ثم مددت اصبعي الرقيمة البيضاء في ثقب دقيق، فلمست يد اخي.. وكانت باردة.. ثم لمست كم معطفه فاذا هو مهتريء ممزق.. والازرار ارتحلت عنه، وضغطت كفي، كي اتلمس صدره ووجهه ولكن الثقب دقيق، فاخرجت اصبعي، فاذا هي حمراء قرمزية مشبعة بدمه القاني.. دم يجري في عروقي ايضاً.. لا يختلف في شيء عن الدم الذي يجري في عروق جميع الصغار والكبار.. ياللأسى ان اخي يبذل دمه وازهق روحه..

وانتقلت باصبعي المصطبغة بالدماء الى ركن قصي، وحدقت بهذا السائل المباع، فلم ار سوى حديقة من الاقحوان الاحمر تذرع اصبعي.. حديقة فيها عندليب يؤمن باغصانه وورود.. لم ادر ما الذي حشر في مخيلتي تلك الرموز.. انها ذكرى ستخلف في ذهني على الدوام صورة ذلك المجد الذي شاده اخي على نافورة فوارة من دماء قلبه العريقة..

وعند المساء، انتقلوا بجثمان اخي الى المقبرة.. وكان صديقي الصغير قد افترق عني، وذهب الى بيته ليأكل ويعيش.

اما انا، فقصدت المقبرة من جانب آخر.. واستبقت الجنازة المقدسة فرأيت المسكن الذي اشتراه الوطن الى اخي.. كان مسكناً صغيراً، بناه عامل خلال ساعات دون ان يفترشه. كان مسكناً لا فسحة فيه.. لان ساكنه عزف عن الحركة، وابطل القيام والقعود.. اجل كان مسكناً ضيقاً ليس له باب او نافذة.

ولم يسعني الا ان احدق بهذه الجموع الغفيرة.. فقد جاءت لزيارة اخي مرة اولى واخيرة.. وكانوا جميعاً يبكون والمناديل على مآقيهم.. ذلك لان السماء تبكي بغيومها ارضنا.. ارضنا ذات الصفة الانسانية التي لم ترتكز عليها بعد معالم الحب الانساني خلال احقاب التاريخ.

ونزل الصندوق اخيراً الى مرقده وابي نادي اخي في شيء من الذل والعبودية ولكن اخي ذهب بعنفوانه وكبريائه، وتدثر التراب كما تتدثر الامة العظيمة كرامتها وعزتها.. ورحت بعد هذا، انظر في وجوه الناس، فأشاهد في كل وجه صورة اخي وفي كل سمة ملامح اخي.. اجل فهؤلاء ايضاً اخوتي.. ويمكنني ان اشغل قلبي بحبهم.. لانهم ايضاً سينون المجد كما بناه اخي الراحل.

.. انا طفل صغير.. في السابعة من عمري.. وسأغدو رجلاً..

اجل انا كالشعب.. وانا بعقيدتي خميرة الوطنية والاباء.. انا لم افتقد اخاً انا لم اندب اخاً.. وانا لم ابث آلامي واحزاني.. لان الكل اخواني وان الجميع اخوة بين احضان كلمة الشعب..

في ذلك اليوم هطلت امطار غزيرة.. هطلت على المروج والمراعي والحقول ورؤوس الناس.. فأنبتت العشب وانمت السنابل.. هطلت بسخاء كي نستمر في عيشنا.. وكي تستمر حياة امتنا في انفاس اجيالنا الصاعدة..

فودعنا الشمس وغنا ليلنا واذا بها تشرق من جديد.

حلب — عبد الرحمن البيك